العودة إلى الايمـــان

تأليف : الدكتور هنرى لنك

وترجمة : الأستاذ ثروت عكاشه

عرض وتحليل : الأستاذ سعيد حمزه مكرم المحامى

مؤلف هذا الكتاب من أعلام علم النفس التجريبى ولذلك فهو يعلن من البدأية أن كتابه هذا إن هو إلا الموجز لتراجم آلاف ممن ساقتهم الظروف إلى التردد على لمعالجتهم) .

وقد استطاع (هنرى لنك) خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدائب فى ميدان العلاج النفسى أن يتعمق نفسيات (أربعة آلاف من الشباب والكهول والأغنياء والفقراء والفتيان والفتيات) .. (فمنهم من لم يستطب أسلوب حياته ومعيشته فركن إلى الخمول أو حاول تغييرها ، ومنهم من كان يشكو بؤس حياته الزوجية أو كان يسعى إلى الطلاق ، ومنهم من كان يجد مشقة فى الاختلاط بالناس وكسب الأصدقاء أو كان يقاسى الكثير من الخجل والحياء ، ومنهم من كان يحاول أن يجد حلا للمشكلات التى تعترض تربية أولاده وتعليمهم ، أو التى تبرزها عاداتهم وطبائعهم ، أو كان منهم أيضاً من يعانى صراعاً عنيفاً بين عقائده الدينية وتجاربه الدنيوية ، أو بين التزاماته نحو أبويه ونحو نفسه ، ومنهم من كان يرزح تحت بعض العادات القبيحة ويود الخلاص منها !!)

ترى ماذا يفعل (هنرى لنك) إزاء هـــذا المعرض الزاخر بشتى الانفعالات الحادة ، والتيارات النفسية المتضاربة ، والانحرافات السلوكية المدمرة ؟!

إن بين يديه أصول علم النفس ومناهجه فليرجع إلى ما توصى به إزاء كل شكل ، بعد أن يفرغ من دراستها وتشخيص علتها ، وقد فعل كما يفعل سائر الأطباء النفسيين بيد أن النتائج لم تكن دائماً على ما يرجو لها من

نضج وإيجابية واكتمال !! وإذن فثمة وسائل أخرى أقوى أثراً وأهدى سبيلا ليست على التحقيق فى جعبة علم النفس ، وليس ثم مناص من البحث عنها فى مظانها ومصادرها ويبدو أن البحث لم يطل كثيراً (بهنرى لنك) إذ يقول : (وسرعان ماوجدت نفسى بعد دراسة مشكلات هؤلاء الناس أستعين - إبان نصحى لهم - من وقت لآخر ببعض الكتاب المقدس ونصوصه ، وأميل إلى توصيتهم باتباع بعض العقائد المعقولة) ويقف ليرقب نتائج هذه الجرعات القليلة من دوائه الجديد فيهجه أن تكون النتائج طيبة ، وإذا هو يوصى - مطمئناً - من يبتغى عنده العلاج أو يسأله النصح ، أو يرجو لديه سكينة النفس — أن يلتمسوا كل أولئك فى رحاب الدين والإيمان والعقيدة !! وهكذا يحدثنا عن أسلوبه الجديد فى العلاج فيقول : (... وما حاولت مرة أن أعبر عن بعض الحقائق العلمية أو شبه العلمية لزيد من الناس إلا واستعنت بهذه الطريقة فأشرت عليه باتباع سنة خلقية حميدة ببساطتها ، ولما تعددت أوجه الشبه بين هذه السنن الخلقية والتعاليم الدينية تبلبل فكرى !! وتأثرت ميوله ، وبمرور الزمن وجدتنى قد تشبعت بعدد لا حصر له من التعاليم الدينية التى كنت قد نأيت عنها بنفسى منذ أكثر من العشرين عاما) .

على أن (هنرى لنك) نفسه قد تعرض قبل ذلك لموجة عاتية من الشك جنحت به إلى الإلحاد الصريح . ولكنه ما لبث أن عاد إلى إيمانه أو عاد إليه إيمانه وها هو يشير لنا إلى الطريق التى أفضت به إلى اليقين : (لقد أتانى الهدى وئيداً حتى أننى لم أتبينه فى نفسى خلال مراحله الأولى ، وما كان مرجع هذا التبدل إلا تلك التجارب المتواصلة التى صادفتنى فى أثناء ممارستى لمهنتى كطبيب نفسانى .) (وقد أخذت مثل هذه الحوادث تدفعنى خطوة إثر أخرى حتى اقتنعت تماماً بأن كل مكتشفات علم النفس لتقويم الشخصية والوصول إلى سعادة النفس ورضاها تنتهى إلى التمسك بالحقائق الدينية القديمة والتعلق بها) .

وما أعمق دلالة مثل هذا الاقتناع الحاسم يعكس ضمير رجل يحدثنا هو عن نفسه فيقول : (كنت ملحداً عنيفاً ومقتنعاً تمام الاقتناع بالحادى ومستعد لإقناع غيرى به) !!

ويسأل (هنرى لنك) نفسه (لماذا أتردد على المعبد ؟ ويجيب على سؤاله فيقول : (إنى أذهب لأنى موقن تماماً أن ذهابى سيفيد برغم كراهيتى الشديدة للذهاب) وكأنه يريد أن يقول إنه ينبغى ألا نقف من الإيمان موقفاً سلبياً فندع لقاءه الصدفة بل علينا أن نخطو إليه خطوات جادة هادفة (وهذا هو الاتجاه السائد الآن فى دوائر علم النفس الحديث يؤكد أنه ليس للسعادة طريق غير العمل والكد والنشاط) ، (ولن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة أو الخلق القويم عن طريق التأمل الباطنى بل عن طريق تدريب النفس أى تهذيبها وحكمها والسيطرة عليها .)

ثم ينافش (هنرى لنك) من يطلق عليهم (البلهاء عبيد السببية) أولئك الذين (تعودوا استبدال العمل بالتأمل والإيمان بالسببية والعقيدة بالتحليل) .

وإنه ليعجب للفكر الحديث حين يأبى أن يعترف بقصوره فى آفاق ماوراء الطبيعة ، بل إنه ليشفق عليه كلما زين (غروره أن يقتحم هذه المجاهل فما يكاد يضرب فيها حتى يعود وإيمانه هشيم لا يلبث أن تذروه الرياح .

فإذا كانت الحياة بطبيعتها (ليست تجربة مبنية على المنطق أو على كل ما هو معقول) وإذا كان هناك أشياء كثيرة فى الحياة يقف إزاءها العقل والمنطق عاجزين عن تفسيرها فإنه لا يبقى أمامنا — حتى نتجنب الشك والقلق والتمزق — إلا أن نؤمن بأن (الفكر ليس غاية فى حد ذاته ولكنه أداة يستخدمها الإنسان ليكيف نفسه مع قيم الحياة العليا وأغراضها التى لا يمكن إدراك كنهها) ولعل أساس هذه القيم العليا بل إن قمة هذه القيم هى الإيمان بوجود قوة (ذات بأس شديد وقدرة غلابة بحيث بلغ مداها هذا المبلغ السديد . العويص الفهم . . السهل التقدير . . هذه القوة سمها الخالق . . سمها الموحد سمها الله . .)

ويتساءل (لنك) ولكن من هو الله ؟ وقبل أن يشتط به الخيال وينصرف به التفكير يجيب فى حسم : (الله كلمة مدلولها قوة ، وأساسها يقين، وباطنها مجهول) ويمضى (هنرى لنك) فى تفسير عجز العقل البشرى عن اكتناه

حقيقة الوجود الإلهى فى منطق متماسك وواضح ، ثم ينتهى إلى أنه (لن نهتدى إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة ، ولن ننهل من موارد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها ؛ فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك وإطراد التخبط ، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة ، ولن تؤدى هذه العلوم إلى تحرير العقول التى ابتدعتها وابتكرتها ، بل ستقود حتما إلى انهيار هذه العقول . . كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتى عن طريق آخر غير طريق العلم ، وأعنى به عن طريق الإيمان .. الإيمان ببعض قيم الحياة الجوهرية التى لا يستطيع المنطق إزاحتها أو زعزعتها)

بل إن المؤلف لا يرى بأساً فى الإيمان بأية عقيدة (فقد جبل الإنسان منذ خلق على الإيمان بعقيدة ما) وليكن موضوع هذه العقيدة ما يكون ، التنجيم أو الكف أو الفراسة أو الروحية إلخ .. إذ أنه مهما بلغت هذه المعتقدات من السخافة فهى أفضل من عدم الاعتقاد فى شىء على الإطلاق ولئن كان الإلحاد يعد مرضاً عقلياً فإن إيماناً على هذه الصورة أو تلك لا بد أن يزيد الحاسة الإيمانية فى الإنسان قوة وتوهجاً ، ولا بد أن ينتهى بصاحبه إلى الإيمان (بالعقيدة الدينية التى تتخلل الحياة فى مختلف نواحيها والتى لا يمكن لأى علم أن يقيم الدليل على بطلان مشتملاتها الجوهرية .) ولعل من الواضح أنه كلما ألح دعاة السببية فى تأليه العقل واحتقار ما عداه من طاقات الإنسان العاطفية والوجدانية كلما ازداد إحساس الإنسان بالضياع والحيرة ، وكلما اندلعت فى ذهنه أسئلة حادة لا تجد لها من جواب . وهكذا يقع (الإنسان فريسة سهلة بين يدى تلك النظريات شبه العلمية التى لا تقوم اليوم إلا لتموت فى الغد ولقمة سائغة بين براثن أدعياء الطب وتلك المذاهب السياسية التى أصبحت اليوم تحير عقله وتبلبل فكره !! وما أبعد المؤلف مع كل هذا عن أن يقصد إلى تسفيه العقل أو التهوين من شأن العلم وإنما هو يستهجن هذه (العجرفة الفكرية غير المحدودة التى تحتقر قيم الطبيعة البشرية البسيطة الجوهرية) وهو لذلك يرى أن سبيل السعادة فى هذه الحياة أن يتحد العقل مع الدين وبذلك يصبح (عقلا ليس نهباً

للتيارات المختلفة التى لا تفتأ تنبع من المعلومات المتزايدة الناتجة عن التفكير المطلق غير المتأثر بالدين)

ثم يعقد المؤلف فصلا بعنوان (الخير فى الاندماج مع الناس) ينتهى فيه إلى أن أية وسيلة تقرب الإنسان من الناس وتهيء له سبيل التجاوب معهم لا بد أن تجد صداها فى نفسه ثقة وسكينة وسعادة لأن (أوجه النشاط الاجتماعى تتطلب حيازة قدر كبير من العادات البعيدة عن الأثرة) . وإذا كان (الغرض الرئيسى من التربية هو بناء الشخصية وتهذيب الأخلاق) فإن الدين وحده يتسنم قمة المثل العليا وهو بلا مراء أكثرها ثراء بمبادىء الخلق القويم

وتحت عنوان : (إنما نحن من يصنع الأطفال) يبحث المؤلف مشكلة العقيدة الدينية فى مرحلة الطفولة . . ما هو سبيل الأطفال إلى اكتساب ذلك (الشعور القوى الذى يمكنهم به أن يميزها بين الخطأ والصواب)

حقيقة إن التعبير عن الذات — فى هذه المرحلة — ضرورة حيوية ونفسية ، بيد أن هذا التعبير لا يكون سليماً إلا فى نطاق إطار من النظام والعادات المصطلح عليها بين الناس ليعيشوا معاً يسعدهم التآلف والانسجام ولقد هدته تجاربه على آلاف من الأطفال الى أن التردد على حلقات الدروس الدينية ومواظبة الوالدين على الذهاب الى بيوت العبادة (يجب أن يكون على رأس قائمة العادات الهامة اللازمة للشخصية) .

ولئن كان الآباء فى أشد الحاجة إلى من يعينهم على أداء واجبهم نحو أبنائهم على الوجـــه المنشود فإن (الدكتور هنرى لنك) يرى أن : (أعظم مصادر هذا المعدن هو الدين فالإيمان بوجود الله ورسله وكتبه يهيء للأبوين ملجأ أميناً موثوقاً به يلجئون إليه ويضع بين أيديهم سلطة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتماً لو لم يؤمنوا بها) ، وهكذا نرى (أن الطفل الذى اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفة المشرع الأعلى للخير والشر يكون قد اكتسب الحافز الجوهرى الذى سيدفع حثيثاً نحو العادات الطيبة ، فبدلا من أن يقوم صرح أعماله على ما يحبه ومالا يحبه تراه يقوم على الصواب والخطأ) .

ثم يعرج المؤلف على (الحب

والزواج) فلا يجعل من الجنس محوراً لبحثه كما يفعل غيره ، بل إنه يؤكد أن عشرين عاماً فى دراسة السلوك البشرى جعله يؤمن أن عامل الجنس فى العلاقة الزوجية قد بولغ فى تصوير أهميته حتى طغى على عوامل أخرى لا تقل عنه أهمية . فالزواج عنده تجربة انبساطية تجمع بين رجل وامرأة ، ومحاولة جادة جاهدة للوصول بهذه التجربة إلى الغاية منها وهى تكوين أسرة متماسكة وسعيدة . وهو يرى أن (تلك العناصر التى تدخل ضمن تكوين الشخصية الطيبة بما فى ذلك إتزانها العاطف ، ومدى نشاطها الاجتماعى ، وشجاعتها فى مقابلة الحياة . وكل عاداتها المنبسطة ، لها أكبر الأثر فى الاهتداء إلى الشريك الآخر بل فى نجاح الزيجة) .

وإنسان هذا شأنه لابد أن يكون مؤمناً بمجموعة كبيرة من المثل العليا ، والدين باعتباره جوهر كل خير وجماع كل الفضائل لا يعتبر الزواج علاقة خاصة بفردين ، بل يرى فيه عقداً عاماً (لا يعدد مياهج الزواج ومزاياه بل يفرض التزاماته وقيوده فرضاً) .

وهكذا (نرى أن تطبيق القيم الدينية الأساسية التى تحض كلها على الإيثار وحب الإنسان لأخيه واجب لا مناص منه إن كنا ننشد السعادة الزوجية هدفاً) .

وللمؤلف بعد كل هذا آراء جريئة فى (التخطيط الاجتماعى) فى محيط المجتمع الأمريكى فهو فى رأيه مجتمع هارب من مسئولياته فهو يفرد مايعانيه من مشكلات (تارة إلى هذا أو ذاك ، وتارة إلى النظام الرأسمالى أو طبقة الأغنياء والموسرين أو التقدم فى الصناعة الآلية أو الإنتاج المتزايد إلخ . .) وعند (هنرى لنك) أن المشكلة المادية ليست أم المشكلات بل لعلها المشكلة الروحية ، وإذا كانت النظم الاجتماعية والاقتصادية لا تخلو من نقص واضطراب (فإن بلوغ هذا النظام أو ذاك حد الكمال يمكن التحقيق إذا تولاه أفراد بلغوا بأنفسهم حد الكمال .)

والدكتور (هنرى لنك) أيضاً آراء فى التربية والتعليم لا تقل جرأة عن آرائه فى التخطيط الاجتماعى قد تخالفه فى بعضها . وفى بحثه تحت عنوان (آفة التعليم) ينتهى إلى أن مناهج التعليم فى حاجة إلى جميع القيم والحقائق الأساسية التى تبحث

فى الطبيعة البشرية حتى يمكن المحافظة على تلك التقاليد النبيلة التى اكتسبها الجنس البشرى ، ووضعها فى المكان اللائق بها وحتى يمكن إخضاع الغطرسة الفكرية وإبعادها عن الأنانية ولن تجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمثل الحاضرة الحديثة غير الدين)

وبعد فلقد وفق الأستاذ ثروت عكاشة فى إيثار هذا للكتاب بالترجمة إلى العربية . وإذا كان الدين لا يزال فى نفوسنا — نحن الشرقيين والعرب بصفة خاصة — ذا أثر واضح فى توجيه نشاطنا الفكرى والوجدانى فإن هذا لا ينفى حاجتنا إلى مثل هذا الكتاب الذى يسعد خطواتنا فى الطريق إلى الله ، وبركى إيماننا بكتبه ورسله واليوم الآخر .

والحق أن ثروت عكاشة قد استطاع أن يجعل من ترجمة كتاب : (العودة إلى الإيمان) الذى يوشك أن يكون كتاباً علمياً — أثراً فنياً يدعو الى الإقبال عليه والارتياح الى مرافقة أفكاره الى دفته الأخيرة . وقد إستطاع أيضا أن يجنب قارئه الوقوف طويلا عند مصطلحات علم النفس وكأنه يؤكد للقارىء أن الحقيقة ليست من التعقيد والغموض بحيث نتوسل اليها بالوسائل العلمية الصارمة .. وانما هى مسفرة عن وجهها المضىء فى ايماننا البسيط بالقيم الكونية والإنسانية . . وحين تشرق فى قلوبنا هذه الحقيقة الخالدة فثم جوهر الدين .. بل ثم وجه الله .

سعيد حمزه مكرم
المحامى

العـــدد القادم

هو مطلع عامنا الثالث :

ثورة فى التحرير : روعة فى الاخراج ، تجديد كامل ، وخطوة جبارة نحو المجلة الإســـلامية الكاملة